كل شيء بخير
سيدتي المركيزة !

للأستاذ عبد الحليم الجندي

في فاتحة الصيف جلسنا عند سفح الهرم نستمع إلى آخر أناشيد باريس عاصمة فرنسا ، التي يقول عنها أبناؤها إن كل شيء فيها ينتهي بأغنية ، والتي يُزلفها « كوت » إلى الهاوية في سرعة الطائرات التي يبعث بها إلى مدريد ، والتي يسوقها « توريز دجوهر » إلى جهنم الحمراء : أي إلى الشيوعية ، فأدار لنا « الأستاذ » تلك الأنشودة البديعة الواردة أخيرا :

كل شيء بخير : سيدتي المركيزة : المتاع سرق
وكل شيء بخير : سيدتي المركيزة : والقصر يحترق
وكل شيء بخير : سيدتي المركيزة

استمعنا ، واستمتعنا ! ثم نسينا — طبعا — ورجعنا ؛ حتى إذا كنت في أوائل الشهر الماضي برأس البر طفرت تلك الأغنية إلى ذهني وإلى فمي فطفقت أرددها ، في المساء وفي الصباح ، وعلى الشط وفي الماء

* * *

نحن الآن في مجلس خاص ، في الكازينو ، على قيد أمتار من اللسان ، حيث العذب الفرات والملح الأجاج يلتقيان ؛ وهؤلاء أكبر الأساتذة في أقدم جامعة في العالم ، وفي أحدث جامعة في العالم ، أخذوا في خلوتهم البديعة بأطراف الأحاديث ، وسالت تلك القرائح السامية بخواطر عالية في الحضارة والاجتماع

الأستاذ الكبير — في جامعتنا المصرية — يعالج ترجمة فصحى لكلمة La mode « المودة » ويعرض على الفقيهين الكبيرين كلمة بديعة بارعة ، فتأخذهما النشوة ويطربان ؛ والأستاذ يقص علينا حديث رحلته الأخيرة إلى الشام ، تلك الأمة المجاهدة في الحرية ، المجاهدة في الأدب ، المجاهدة في الاقتصاد ... وبنوها الذين ضربوا لنا الأمثال في كل ضرب ! الذين حدثوه عن مصر بما لا يعرفه أبناء مصر ! ... لقد كان أروع ما راعه في ذلك القطر الشقيق أنه لم يجد فوارق بين الطبقات ؛ وعلة ذلك عنده أن المروءة أعمق أصولاً عند إخواننا ، وأن المروءة معناها النخوة والمساواة ؛ وعلته أيضاً أن التفاوت في المرتبات ليس هائلاً ؛ وأخيرا أن ليس ثمة أسرات تضرب في مظاهر الأبهة كأنها تضرب برَوْفَين في السماء ...

أما هنا — وانحدر الحديث الى من هنا . قال قائل : هنا تجد ستة عشر مليوناً ولا تجد ستة عشر رجلاً ممن ينفذون الى الأعماق ! قلت : إني أطلق على حضارتنا الحالية : « حضارة السندوتش » ؛ فالناس يمرون بمحال « السندوتش » ليطعموا طعامهم على وجه الاستعجال ، كما يمر رجال القانون ، ولا يضيرهم بعد ذلك أن تتأذى معداتهم وأعصابهم ما داموا قد تناولوا وجبتهم بمحال من الأحوال ... ! ولقد طغت تلك المحال على المطعم الأصيل فكادت تجليه عن مكانه . أنظر حيثما شئت تجد أنوارا لامعة في الأرض تكاد تباهي كواكب السماء ! إنها ليست أنوار معهد ولا مستشفى ، ولكنها أنوار السينما والسندوتش . وكلما ذهبت الفتاة الى الطبيب أو شكا الطالب الى أستاذه رجاها الطبيب أو الأستاذ أن يقلعا ، أو يقللا ، من ارتياد السينما ومن ازدراد السندوتش ...

وكما قضى السندوتش على المطعم تكاد تقضي المذكرات في الجامعة على المراجع ، والخليلات على الحليلات ، والسكنات السياسية على الاصلاح العميق ، وشهوات الساعة على واجب التاريخ ... والأدب الرخيص على الأدب العالي ... والمجلات الخفيفة على الكتب ... ولنفس الأسباب .. وفي عبارة موجزة : لكأن هذا الجيل ليس من مصر ! وكأنما هو يقضي منها وطراً ، أو كأنه فيها عابر سبيل ....

وتطرق الحديث — حتما — الى البلاج ، الى الماء ، والى فنون الماء ، وما أدراك ما فنون الماء : المراء ، والاغراء ، واستهتار الرجال وتبذل النساء ! وخرج كل منا من الحديث غضبان أسفا

ومع ذلك فالذولاب يسير ... وظواهر الأشياء لا تنبئ إلا عن خير الأشياء ...

وكل شيء بخير : سيدتي المركيزة ! المتاع سرق
وكل شيء بخير : سيدتي المركيزة ! والقصر يحترق
وكل شيء بخير : سيدتي المركيزة !

* * *

وانفرط العقد ، وانصرم الليل ، وأرسلت الشمس شعاعها في الصباح أصفر وهاجاً نافذا في أعماق اليم كأنه سهم ذهبي بديع يتوهج في طبقات الأفق ، والتقى الصديقان بعد عشرة أعوام

وبعد رحلة طويلة فى أوربا ، وبعد أن (كانا يظنان كل الظن أنْ لا تلاقيا) ... وانطلقا على الشاطئ

قال الذى رجع من أوربا : أرأيت أنى وجدت فى مصر ما لم أجد فى أوربا ؟ قال له صاحبه : أنسيت أن إسماعيل قد جعلها قطعة من أوربا ؟ ومنذ ستين عاماً ! قال إنها كلمة تعدل كل ديون اسماعيل ، فهو كما أفقر الأمة فى أموالها أفقرها بهذا الذى ظن أنه صيّرها إليه ... إنك لا ترى على هذا الشاطئ إلا أقبح القبيح الذى تنكره أوروبا .. لكأن الناس ياصديقى قد جاءوا إليه ليتعروا فيه لا ليصطافوا عنده ....

وانطلقا حتى بلغا مجمع البحرين قال : انظر الى النيل يقذف بنفسه فى صميم البحر الأبيض ؛ إنه ينطلق كالقذيفة فى البحر .. وترى ماءه الأحمر أو الأسمر ، بل تستطيع أن تشربه عذباً على بعد أميال من الشاطئ ؛ ولكنك بعد أميال أخرى لا تراه ؛ ويفنى اللون الأسمر فى اللون الأزرق ، والماء العذب فى الماء الملح ؛ وهكذا نحن نقذف بأنفسنا فى ذلك الخضم الأوربى ولكن مع فارق ضخم : هو أن الماء يسع الماء ، أما الحضارة الأخرى فانها تلفظنا ...

وانطلقا .... فهما الآن عند الكازينو : حيث الفتيات يواعدن الفتيان جهرة ... ! لكأنه يوم الزينة ، وكأن الناس قد حُشروا ضحى .. ! لا ليشهدوا سحرة فرعون ولا آية موسى ، ولكن ليشهدوا السحر الحرام .. فيرى الأناث الرجال المتأنثين ، ويرى الرجال النساء المسترجلات .... وإلا فلماذا لا يحتشد ذلك الجمع على الشاطئ الذى يبدأ من بور سعيد وينتهى عند البرلس بمصيف آخر ؟ لماذا لا يحتشد ذلك الجمع إلا أمام الكازينو ؟ ارجع البصر يا صديقى إلى ذلك الحوت المستلقى على الشاطئ ! ثم ارجع البصر كرتين ، هنالك ، تلك الفتاة التى وصفها النقيب (سانت أوبان) فى مرافعته عن ڤكتور مرجريت عندما قدموه للمحاكمة من جراء (لا جارسون) — تلك الرواية التى صارت بعد خمسة عشر عاما من أعف الروايات !! — قال سنت أوبان (.. أين تلك البطلة المسربلة بالبياض وهى تقسم يمين الطاعة لزوجها فى المعبد مِن هذه الفتاة العارية المتمددة على رمال الشاطئ تعرض جسدها على الطبيعة تستقبل أشعة الشمس حقاً ولكنها تستقبل أيضاً تلك الأشعة النارية المسلطة عليها من عيون الناظرين ...)

وانطلقا نحو علم أخضر يتراءى على البعد . قال أحدهما إنك ترهقنى عسرا إذا سرت بى إلى حيث هذا العلم ؛ إننى أراه فوق الشاطئ الذى نحن عليه كطربوش الميت على الآلة الحدباء التى تحمله ؛ وهو من مجد هذا الشعب المنتشر على هذا الشاطئ كالنشيد الذى أجازوه مائة جنيه لأنه خالٍ من المعنى ، خالٍ من الاحساس ، ومع ذلك جعلوه نشيدنا القومى ! ! ... إننى سمعت الأنشودة التى غنيتها لك فى الرقص ، ولكن الرقص يحارُ خجلاً ، ويتفصد جبينه عرقاً ، إذا وقف أزواجه أمام هذا الشاطئ ... إن الشباب يتعلم ليتعطل ، والعامل يعمل ليجوع ، والاقتصاد المصرى يزخر كتيار النيل ليصب فى البحر الذى يجمعنا بأوربا ... أفهذا الشباب الناهض ، بل الرابض ، هو الذى سيبنى الأسطول البحرى ، والأسطول الجوى ، ويقطع الصحراء راجلاً إلى الحدود ... !! ومع هذا فقد شرع له أساتذة الجيل أسوأ شرعة عندما أعطوا جائزة لذلك الباحث الذى شرط على رجل القرن العشرين أن يكون « وصوليا » لكى ينجح ... ! ! فاذا سألت عن هؤلاء الأساتذة ، فاعلم أن منهم صاحب « حياة محمد » ، وأن منهم أيضاً تلميذ محمد عبده ! !

ومع ذلك أيضاً ... فكل شىء بخير

كل شىء بخير : سيدتى المركيزة ، المتاع سرق ، والقصر يحترق ، وكل شىء بخير ...

* * *

وكنا كلما بعدنا عن الكازينو هدأ الموج وسكن البحر ؛ قلت : ما للموج لا يرغى ولا يزبد إلا حيث هؤلاء الناس يجتمعون ؟ فأجاب صديقى : «إننى سمعت إحداهن تقول لأختها : إن الموج يتدافع نحوها كما يتدافع الهوى أو الهواء ، تارة فى عنف ، وتارة على استحياء . فردت عليها الفاجرة تقول : اسمعى ! إننى سأذيع لك السر الذى بينى وبينه : « إنه يتظاهر أمام الناس بأنه يلاطم الشط ولكنه فى الحقيقة يقبل قدمى .. وهأنذى أركض بهما فى ذلك المغتسل البارد .. وأسلمهما للقبل »

وكنا قد دنونا من السارية ، ثم وقفنا تحت العلم ، فيا لتوفيق الله سبحانه ! إنه علم فرق الجوالة من شباب الجامعة الأشداء جاءوا يضربون خيامهم على هذا الشاطىء ويضربون لفتيانه المثل العالى .. وجاءوا ليبعثوا فينا الأمل الذى قضى أو كاد

ورجعنا فى العاشرة صباحا ، وكان الراديو يجاجل فى الآفاق جميعها بآيات الله العلى ! قلت يا صديقى بل هنا الأمل

فلنراجع البرنامج !

عبد الحليم الجندى المحامى